مفهومات المجتمع ما دامت مجتمعا مصغرا ، مكثفا ، منمذجا ؟ لم لا نطبق على الرواية مفهومات المجتمع ، ونطلق على شخصياتها صفات شخصياته دون ان ننسى انها فن ينمذج الواقع والمجتمع ، ودون ان ننسى انها « واقع جديد » ومركب فيه من الواقع الحقيقي ـ المجتمع ـ جوهره وروحه ؟

تأسيا على هذه المفاهيم ، تحاول هذه الدراسة ان تعيد بناء عالم جبرا ابراهيم جبرا الروائي ، وعدتها ومواد بنائها في ذلك هي المفاهيم التي تقدمت ، ثم روايات جبرا ابراهيم جبرا التالية :

١ ـ « صراخ في ليل طويل » (١٩٥٥) .

٢ ـ « صيادون في شارع ضيق » (١٩٦٠) .

٣ ـ « السفينة » (١٩٧٠) .

٤ ـ « البحث عن وليد مسعود » (١٩٧٨) .

* * *

١ ـ « صراخ في ليل طويل »

تنتهي رواية « صراخ في ليل طويل » هكذا :

« غير أن الطريق لم تظل خالية طويلا .. ما هي الا فترة قصيرة حتى كانت شوارع المدينة تمتد وتتشعب امامي تملؤها جموع الناس . ولم يكن من العسير علي حين حدقت في عيونهم أن ادرك ان الكثيرين منهم كانوا هائمين على وجوههم ، كما كنت هائما لسنتين مديدتين ، يبحثون عن نهاية لليل طويل وبداية لحياة جديدة »(ص ٩٥) .

واضح ، من خلال الرواية ، ان العلاقة بالماضي (الليل الطويل) وبداية حياة جديدة ، هي قضية جبرا ابراهيم جبرا في روايته الاولى ، فالمسألة كانت وقتها (في الخمسينات) مطروحة سياسيا وأدبيا . كان هناك حركة اجتماعية ، سياسية وادبية ناهضة ، وكان المجتمع ـ وقتها ـ يتفجر ليعاد بناؤه من جديد في كثير من الاقطار العربية ، وكانت العلاقة بالماضي وموروثه احدى المشكلات الاساسية التي واجهت المثقفين العرب آنذاك . فحركة الشعر العربي الحديث ـ مثلا ـ لم تكن إلا بعدا من ابعاد هذا الحوار مع الماضي. واذا كان الشعر العربي الحديث قد اختار رفض الماضي ، وذلك باتباعه طريق الحداثة والقصيدة الجديدة ، فان جبرا ابراهيم جبرا يرفض الماضي كذلك في « صراخ في ليل طويل » ، وذلك بجعله « ركزان » المرأة الشابة بالنسبة الى اختها ، تحرق القصر التاريخي الارستقراطي الذي تعيش فيه وتمزق وثائق الاسرة التاريخية « الاقطاعية » : ان الرمز نفسه يتأكد مرة ثانية برفض أمين العودة الى زوجته التي هجرته منذ عامين : انه بذلك يرفض « النظر الى الوراء » . لكن من يرفض الماضي في هذه الرواية ، وبأي اتجاه وكيف رفض هذا الماضي ؟ لننظر في بناء الرواية ، وفي شخصياتها اولا :